في هذه الصورة، وحيد قرن أبيض شمالي جميل يهيمن على المنظر. يقف بزاوية في منتصف الصورة، ورأسه الضخم، به نتوء صغير في موضع قرنه، ويميل برأسه إلى الأسفل ناحية اليسار. وقدماه الأماميتان مغروستان في عشب السافانا الكيني الجاف. على يمينه، رجل يرتدي الزي العسكري ويجثو على قدميه. يمسك الرجل بيده اليسرى ماسورة بندقية هجومية لونها أسود غير لامع. وبيده اليمنى، يحك أسفل بطن وحيد القرن من بين قوائمه الأمامية.

يقف رجلان آخران يرتديان الزي العسكري - أحدهما على اليسار أمام رأس وحيد القرن، والآخر على اليمين - ويحمل كلاهما بندقيته الخاصة، وينظران إلى الأفق أمامهما. وفوقهما السماء زرقاء وصافية يتخللها بعض السحاب الركامي الأبيض.

ينطوي المنظر على أعشاب السافانا الملقى عليها ظلالٌ خفيفة، ما يمنحها درجات ذهبية تضفي وهجًا دافئًا بالغ الرقة. ويمثل وحيد القرن رمزًا للسمو والصمود الأصليين. تبعث هيئته الضخمة المغطاة بجلد يشبه الدرع هالة من الشموخ الذي لا ينضب. وعيناه بركتان من الظلام الدامس داخل وجهه الجلدي تعكسان تقدُّم الزمن القاسي.

اسمه سودان، وهو ملحمة في عالم الحيوان تكفي لتسميته على اسم بلد، حيث إنه آخر ذكر وحيد قرن أبيض شمالي على وجه الأرض. والرجال المحيطون به هم حراس حفظ البيئة، أبطال السافانا المجهولون، الذين يحمونه.

يطوقه الحراس مُشكلين درعًا بشريًا للحماية من الصيادين غير الشرعيين، وهم أفضل مثال لتلاقي البشر مع الطبيعة. يمتزج زيهم العسكري بسلاسة مع لون نسيج السافانا الأخضر، ويعكسون عزمًا رصينًا.

وجود هؤلاء الرجال لم يكن بغرض الهيمنة، بل من أجل الإشراف، حيث يعكس وجودهم الالتزام الواضح الذي يعترف بأن وحيد القرن الأبيض الشمالي هو الرمز الأكثر هشاشة للتنوع البيولوجي المتضائل على كوكبنا في مراحله الأخيرة.

في قلب براري إفريقيا، غالبًا ما تمثل الحدود بين الإنسان والطبيعة تعايشًا مضطربًا، ولكن هذه الصورة تروي قصة مختلفة: قصة التفاني، والتصميم، وهشاشة أكثر المخلوقات سموًا على كوكبنا. وتروي قصة ساحرة عن الصمود والأمل والمأساة.

لا أحد من هؤلاء الرجال حاصل على شهادات جامعية، وهم ليسوا بعلماء، وكلمة أستاذ لا تظهر أمام أي من أسمائهم. وعلى الرغم من ذلك، فإن الوقت الذي قضوه مع سودان جعلهم خبراء بأحواله. في الواقع، جعلهم هذا الوقت قريبين منه. وحقيقة معرفتهم بأن وحيد القرن الأبيض الشمالي هالك على الأرجح تضيف مزيدًا من الثِقل إلى دورهم كحماة. وهناك عاطفة تؤثر في تفانيهم في حراسة آخر نوع من كائن بهذه الفخامة.

وحيد القرن هو مخلوق قديم يمتد نسبه التطوري عبر الزمن، ويحمل في هيكله المخزون الجيني للقرون الماضية. وبصفته الأخير من نوعه، فهو يمثل شاهدًا حيًا على العصور الماضية، ورمزًا للدمار البالغ الذي تلحقه اللامبالاة البشرية بالعالم الطبيعي. عندما ترى الحارس الرئيسي يحك صدر هذا العملاق بلطف، فإنك ترى التفاهم والاحترام الذي كان يمكن أن يكون عليه البشر.

بينما يقف الحراس في يقظة هادئة، نرى القدسية في العلاقة بين هؤلاء الرجال وهذا الحيوان التي تجسد اعترافًا بالعلاقة التي يمكن أن تُقام بين البشر والعالم الطبيعي. وتعلن وقفة الحراس الالتزام الأخلاقي للإنسانية بحماية هشاشة الحياة على هذا الكوكب.

في الوقت نفسه، أدى اعتقاد البشرية الخاطئ بالقدرات العلاجية لقرن حيوان وحيد القرن إلى وضع هذه المخلوقات الجميلة على حافة النسيان. كم يمكن للبشر أن يكونوا جاهلين وأنانيين، في حين أن الإرث الذي نتركه للأجيال القادمة على المحك.

تعزَّز المشاعر العاطفية في الصورة من خلال وهم الخلود الذي يمكن أن يجلبه التصوير الفوتوغرافي، حيث تمثل هذه اللقطة لحظة ستظل ثابتة إلى الأبد. وعلى الرغم من ذلك، فإن حياة هذا المخلوق في الصورة على وشك الانتهاء، وهي حياة لنهاية حيوات لا تعد ولا تحصى، فلطالما جابت حيوانات وحيد القرن الأبيض الشمالي الأرض. سودان هو الذكر الأخير، وعندما يموت بهدوء ويختفي، كل ما سيبقى هو هذه الصورة وغيرها من الصور الأخرى التي التُقطت له. إنه مشهد استمر لآلاف السنين، حيث ارتقت الأنواع واختفت، وقد شهد الكوكب على المسيرة الحتمية لتطور ذي خلل في بعض الأحيان.

ولعل قوة هذه الصورة تكمن في قدرتها على إثارة التأمل وإعادة النظر في الأمور. إنها شهادة على الجمال الهش للعالم الطبيعي، وواجبنا الأخلاقي لحمايته. إنها دعوة للتأمل في التفاعل العميق بين الإنسانية والطبيعة، وفي الخيارات التي نتخذها كوننا رعاة لهذا الكوكب الهش.

تناشدنا هذه الصورة ببلاغتها الصامتة أن نترفع عن غرائزنا الدنيا، وأن نتحمل المسؤولية التي يتطلبها وجودنا المشترك. إنها تطالبنا بأن نتعامل مع تعقيدات الحفاظ على البيئة، ليس كمراقبين سلبيين، بل كمشاركين نشطين في نضال عالمي من أجل الحفاظ على البيئة. نحن نطلب من هؤلاء الرجال الأفارقة أن يحرسوا التراث العالمي، ولكن ماذا نقدم عن أنفسنا في هذه العملية؟

في النهاية، قُتل سودان قتلاً رحيمًا في 19 مارس 2018. حيث استسلم هذا الفرد الأكبر سنًا من نوعه للتغيرات التنكسية في عضلاته وعظامه، وفي النهاية، لم يعد قادرًا على الوقوف. قُتل من قِبل الأطباء البيطريين المتخصصين في محمية Ol Pejeta Conservancy في كينيا لتخفيف معاناته.

لفترة طويلة من حياته، كان محاطًا بأشخاص اعتنوا به جيدًا. وفي المقابل، كان لطيفًا وودودًا معهم. أنا متأكد من أنه إذا كان لدى سودان آمال لكانت أن تتذكره البشرية كرمز لأفضل مخلوقاتنا السامية، وما هو ممكن بين الإنسان والحيوان، إذا ما رأينا فقط بعضنا على قدم المساواة في هذا الكوكب الهش.

اليوم، هناك برنامج يبحث إمكانية استعادة السلالات الفرعية باستخدام عينات من الحيوانات المنوية والبويضات، حيث يوجد 29 جنيئًا لحيوان وحيد القرن الأبيض الشمالي. وإذا كانت هذه الطريقة ممكنة لإعادتها، فإنها قد تشكل نقطة تحول، ولكن لا يمكننا أن نسمح للتطورات العلمية بالحد من حمايتنا تجاه كل ما لا يزال حيًا ويعيش في الطبيعة. الطبيعة تستحق دعمنا وحمايتنا. وفي المقابل، ستعتني بنا.